الفكر التحرّري عند الشيخ عبد العزيز الثّعالبي وأبعاده الوطنيّة والقوميّة

أ/كوثر هاشم /طالبة دكتوراه 3 /جامعة الشهيد حمّة لخضر الوادي
أ.د/محمّد السعيد عقيّب/جامعة الشهيد حمّة لخضر /الوادي
maguieb@yahoo.fr
hachem-kaouthar@univ-eloued.dz

ملخّص :

دافع عبد العزيز الثّعالبي طيلة مسيرته النّضاليّة عن تحرّر وطنه تونس، وسائر بلاد العرب والمسلمين، فكان صوتها المدوّي المناهض للهيمنة الاستعماريّة مطالبا بحق الاستقلال واسترجاع كرامة التّونسيّين التي سلبت منهم، ورأى أنّ سبيل ذلك إنّما يكون بالتخلّص التّام من الاستعمار منطلقا في ذلك من معاداته له، وضرورة إصلاح الفرد والمجتمع التّونسي والعربي والإسلامي في شتّى المجالات، متمسّكا بمقوّمات الوطنيّة الثّلاث الإسلام – اللغة العربيّة – التّاريخ المشترك بين الشّعوب المغاربيّة والعربيّة والإسلامية مؤكّدا على وحدتها واتّحادها .

وقد كان لفكر الثّعالبي ومبادئه التحرّريّة تأثيره ليس على مستوى السّاحة الوطنيّة التّونسيّة فحسب، وإنّما وصلت أفكاره وجهوده إلى نصرة مختلف البلدان العربيّة والإسلاميّة، وقاوم معها ضدّ الاستعمار الأوربيّ.

Abstract

Abdelaziz Thâalbi defended throughout his struggle for the liberation of his native Tunisia, and other Arab and Muslim countries, and her voice was resounding anti-colonial domination, demanding the right to independence and recover the dignity of Tunisians who robbed them, and that to this end

it will be the total elimination of colonialism, the starting point in that of antagonism to him and the need to Tunisian reform of the individual and the community and the Arab and Muslim in various fields, stick to the three national viable (Islam - Arabic language - a common history) between the Maghreb and the Arab and Islamic peoples, stressing their unity and union.

He was thought Thaalbi and principles of liberal influence not only on the level of the Tunisian national scene, but got his ideas and his efforts to support the various Arab and Islamic countries, and fought with them against European colonialism.

مقدّمة :

يعتبر عبد العزيز الثّعالبي من أبرز الأعلام الوطنيّة التّونسيّة التي قادت الكفاح الوطني منذ بدايات القرن العشرين، إذ تمتّع بشخصيّة قويّة كان يغذّيها فكره التحرّري المتعطّش للحريّة، والمعارض لأيّ شكل من أشكال استعباد الإنسان، والتعدّي على حقوقه وحريّاته، هذا الفكر تخطّى بتأثيره حيّز القطريّة ليشمل كامل البلاد العربيّة والإسلامية المستعمرة.

وللتعرّف على أهميّة أفكاره التحرّرية، جاءت هذه الدّراسة التي ركّزت فيها على مفهوم التحرّر عند الشّيخ عبد العزيز الثّعالبي وأسسه ومنطلقاته ،وكذا أبعاده على المستوى الوطني والمغاربي والعربي والإسلامي.

أوّلا : من هو الثّعالبي ؟(1295 هـ / 1876 م – 1363 هـ / 1944م)

هو محمّد عبد العزيز بن إبراهيم الثعالبي ،يمتدّ نسبه إلى العالم المشهور عبد الرحمان الثعالبي[1]،من أصول جزائريّة ،تولّى جدّه رعايته وتنشئته ،فحفظ القرآن الكريم ثمّ أتمّ دراسته الأوليّة في البيت على يد مدرّس خاص، علّمه النّحو وأفهمه العقائد وحبّب إليه الأدب، ثمّ دخل مدرسة باب سويقة الابتدائيّة بتونس[2]، ولما أنهى فيها علومه التحق بجامع الزّيتونة ،وعمره لا يتجاوز 14 سنة ليتعلّم العلوم الدّينيّة المختلفة وعلم الكلام والفلك والمنطق والرياضيات والنحو والصّرف والأدب العربي، ومن الأساتذة الذين أخذ عنهم وتأثّر بهم سالم بوحاجب والمكّي بن عزّوز[3]،كما تتلمذ على يد مجموعة من الأساتذة في الزّيتونة أمثال فيلسوف الإسلام الشيخ مصطفى بن خليل وعالم الرياضيات الشيخ السمّاتي والشّيخ الصّادق الشّاهد والشيخ محمد بن خوجة والشّيخ إبراهيم الصّفايحي والشّيخ محمد النجار،والعلامة حسين بن حسين والصادق صفر والطاهر الرياحي وإبراهيم المرغني[4].

اختلفت الكتابات التاريخيّة حول استكماله لتعليمه الزّيتوني وحصوله على شهادة التّطويع، غير أنّ الرّاجح أنّه لم يكمل دراسته في الزّيتونة5 ، لكنّه بقي يتردّد على المدرسة الخلدونيّة ويتابع دروسه فيها[6]،ولما توسّعت مداركه بدأ يطالب بالإصلاحات ومحاربة الجمود ،والبدع والخرافات التي انتشرت في تونس متأثّرا بأساتذته المصلحين ممّن ورثوا الإصلاح عن الوزير خير الدّين ،وقد بدأ في نشر أفكاره منذ 1894 عندما شرع في الكتابة على صفحات العديد من الجرائد المصريّة كالمقياس والفيّوم والنّيل يوقّعها بأسماء مستعارة[7]،وأتبع ذلك إصدار جريدته " سبيل الرشّاد " سنة 1895 التي تبنّى فيها مبدأ الإصلاح والإرشاد ،غير أنّ سلطات الحماية عطّلتها بعد مرور عام على إصدارها [8]،كما كتب في جريدة الحاضرة وجريدة التّونسي ،وساهم مع الفرنسي ديسيتري (Destrees) في تأسيس جريدة " البريد التّونسي " [9].

وفي سنة 1907 عمل في حركة الشّباب التونسي التي تزعّمها علي باش حنبة[10]،وتولّى رئاسة جريدته" الاتحاد الإسلامي "،كما كتب الثعالبي في صفحات عدة جرائد أخرى كجريدة المبشّر الجزائريّة وجريدة العدليّة للهادي عبّاس،وجريدة القلم لمحمد البحري وجريدة ترويح النفوس لعزوز الخياري[11] ونتيجة نشاطه المتنامي ضيّقت عليه سلط الحماية الخناق ،وأوقفت جريدته وصادرتها واتّهمته بالتطرّف ومهاجمة الإدارة الفرنسية صراحة فسجنته مع مجموعة من أصحابه مدة شهرين ،ثمّ خرج لينادي بالإصلاح الذي لم يرض عنه لا الفرنسيين ولا بعض المشائخ[12]،الأمر الذي اضطرّه لمغادرة تونس ليجوب مختلف بقاع العالم في سلسلة رحلات استغلّها في استكشاف واستطلاع أحوال البلاد العربيّة والإسلامية،والوقوف على أسباب الوهن والضّعف ،والبحث عن سبل القضاء عليها وتخليصها من هيمنة الحركة الاستعماريّة، فزار الجزائر وطرابلس الغرب والأستانة واليونان ومصر ومقدونيا والنمسا وسوريا وإيطاليا والسودان والحجاز وبيروت والمغرب الأقصى وإسبانيا واليمن وفرنسا والصّين والهند وغيرها[13]، ولما عاد إلى تونس واصل نشاطه الوطني ،ومناهضته للاستعمار الفرنسي وسياساته.

توفّي عبد العزيز الثّعالبي في الفاتح أكتوبر 1944[14] عن عمر ناهز 80 سنة بعد مرض طويل ألمّ به ،تاركا وراءه موروثا ثقافيّا و فكريّا مهمّا منه: مؤلّف روح التحرّر في القرآن الكريم ،وتونس الشّهيدة ،ومعجز محمّد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ،ومسألة المنبوذين في الهند، والرحلة اليمنيّة والكلمة الحاسمة ،وخلفيّات المؤتمر الإسلامي بالقدس وغيرها.

ثانيا : مفهوم التحرّر لدى الشيخ الثعالبي:

لطالما كان التحرّر مطلبا شرعيّا وأساسيّا ناضلت من أجله شعوب المستعمرات المغاربيّة وقادتها الوطنيّين، وعلى رأسهم أب الوطنيّة التّونسيّة عبد العزيز الثّعالبي الذي

تشبّع فكره بالحريّة، وتاقت نفسه لتحرّر بلاده منذ صغره، وهو يشاهد بأمّ عينيه ما يقترفه المستعمر سواء في تونس أو الجزائر أو سائر البلدان العربيّة والإسلامية من سلب ونهب وانتهاك للحقوق والحريّات والحرمات، لذلك فقد تأثّر في البداية بشعارات الثّورة الفرنسيّة ومبادئ تحرير الإنسان وضمان حقوقه ،ووجّه دعوة لفرنسا لتحرير الإنسان المسلم وتحقيق تقدّمه وازدهاره، لكن سرعان ما تلاشى ذلك التأثّر بعد إدراكه لحقيقة السّياسة الاستعماريّة ،فبدأ مشواره النّضاليّ يأخذ صفة المناهض للاستعمار والمحارب له ،وبرز ذلك من خلال كتاباته الصّحفيّة [15] في مختلف الصّحف الوطنيّة والعربيّة ،ومؤلّفاته المختلفة كروح التحرّر في القرآن الكريم وتونس الشّهيدة الذي فضح فيه السّياسة الاستعماريّة الفرنسيّة في بلاده ودعا من خلاله إلى منح حريّة التّونسيين في تسيير بلادهم ،وناصر القضايا التحرريّة في العالم من ذلك موقفه الواضح من الاستعمار الايطالي لطرابلس الغرب ،ومناضلته إلى جانب لجنة مساندة المقاومة فيها ،وموقفه الرافض للاستعمار الانجليزي في البلاد العربيّة المشرقيّة وبلاد الهند[16] ومشاركته في المظاهرات والاحتجاجات كأحداث الزّلاج والترامواي المندّدة لسلط الحماية الفرنسيّة في تونس ،لينعكس فكره التحرّري أكثر من خلال مشاركته في الوفد التونسي المرسل إلى مؤتمر باريس – مدينة النّور والحريّة – بعد انتهاء الحرب العالميّة الأولى عندما قدّم مذكّرة إلى الرّئيس الأمريكي ولسن طالبه فيها باستقلال تونس[17]،وحقّ التّونسيين في تقرير مصيرهم ليؤسّس في 1920 الحزب الحرّ الدّستوري رفقة ثلّة من الوطنيّين،والذي جاهر بالنّضال الوطني من أجل الحريّة والانعتاق.

سعى الثّعالبي وانتهج مختلف السّبل التي يمكن أن تكسبه دعما لقضيّة تونس فارتبط بالاشتراكيين الفرنسيين الذين تبنّوا بالفعل المسألة التّونسيّة وربطوا بين نضال حزبهم وبينها وهو ماكان يهدف إليه بأن يجد حزبا كبيرا يستمرّ في طرح المشكلة

التونسيّة على الرّأي العام والوسط السّياسي الفرنسيين ،وقد أجاب على رسائل رفاقه بخصوص هذا الشّأن أنّه سوف يستمرّ في الطّريق التي هو عليها، وسيبقى أمينا لعلائقه مع الاشتراكيين ،ونصح بالتّشديد عليها لأنّ هذا الحزب لا يماري بحقّ التّونسيين بالاستقلال ،ولأنّه ضدّ الاضطهاد مهما كان سببه أو الغاية التي يتذرّع بها[18] .

ولم تكن فكرة التحرّر عند الثّعالبي محدودة المجال والمكان ،بل ما ميزّها أنّها كانت فكرة شاملة واسعة لم تقتصر على التحرّر السّياسي أو العسكري أو تحرير تونس فقط وإنّما قاوم الثّعالبي منذ بدايات القرن 20 م داعيا إلى محاربة الاستعمار والبدع ما ظهر منها وما بطن وتركيز ثقافة عربيّة إسلاميّة ،وإلى تحرّر بلاد العرب والمسلمين كافّة ،وآمن بأنّ ذلك لا يتحقّق إلّا باعتمادهم على قوّاتهم الذّاتيّة وعلى وحدتهم لذلك كان يطمح دائما إلى توحيد الحركات السّياسيّة في المغرب العربي كخطوة نحو توحيد البلاد العربيّة ثمّ العالم الإسلامي[19] .

ورغم الظّروف التي مرّ بها الثّعالبي وغيابه عن تونس فترة طويلة ،إلّا أنّه لم يتخلّ عن أفكاره التحرّريّة، وحقّ تونس في الاستقلال والتخلّص من قيود الاستعمار، فبعد عودته سنة 1937 دعا إلى توحيد صفوف الحركة الوطنيّة وإلى تحرير البلاد قائلا: " الذي ينقصنا ليس هو العلم والمادّة بل هي الإرادة سلبت ثروتنا وملكنا وعزّتنا، ولم يبق لنا إلّا آخر معقل وهو الإيمان...إذا أردنا أن نكون كما يجب فلنقف وقفة الجندي الباسل لإنقاذ الميراث العظيم في تحرير البلاد فانتبهوا إلى ما يجب عليكم لأنفسكم ولبلادكم لتكونوا قدوة إلى الحياة ترفعون شعار الإسلام والعروبة يومئذ يتغيّر التّاريخ، وتصيرون أحرارا جديرين بالانتساب لهؤلاء الأسلاف الذين دوّنوا أجلّ المفاخر في تاريخ هذا العالم"[20]، وبذلك رسم الثّعالبي للوطنيين التّونسيّين الطّريق الأمثل لتحقيق النّصر وبلوغ الغاية المنشودة .

ثالثا : أسس ومنطلقات الفكر التّحرّري عند الثّعالبي :

ارتكز الفكر التحرّري للثعالبي على عدّة أسس أهمّها :

1.معاداته للاستعمار : كان اتّصال الثّعالبي بالغرب الاستعماري في وقت مبكّر من حياته، فمنذ طفولته تكوّنت لديه معارف أوليّة عن الاستعمار الغربي، انطلاقا من بيئته الأسريّة، وذلك من خلال ماكان يتلقّاه من روايات عن الغزو الفرنسي للجزائر من طرف جدّه عبد الرّحمان[21]، فتعرّف على حقيقة الاستعمار الفرنسيّ، وحزّ ذلك في نفسه، وزرع فيها روحه العدائيّة لكلّ معتد على حقّ وأرض غيره، تلك الحقيقة التي رآها على جسد جدّه وهي آثار الرّصاص الفرنسي على صدره، والتي بقيت شاهدة على جرم المحتل الذي أجبرهم مع غيرهم من الجزائريين على الهجرة من الجزائر فرادى أو جماعات، وعن ذلك يقول " كنت في طريق قريب من بيتنا وأنا صغير حينما دخل الجيش الفرنسوي تونس فرأيت الكآبة تخيّم على وجوه التّونسيّين فاستغربت ذلك، وكنت أجهل السّبب ، وذهبت إلى جدّي فوجدته يبكي لأوّل مرّة فقلت له مندهشا لم هذا البكاء يا جدّي ؟ هل ضربك أحد ؟ قال : نعم إنّ البلاء انصبّ علينا ...وإنّي خائف وجل من أن تصبحوا في المستقبل فرنسويين "[22]، وفي موقف آخرا كان له الأثر الكبير عليه حيث يقول " كنت صغيرا ورأيت أمّي تبكي فسألتها السّبب فقالت: أما رأيت الفرنج[23] مرّوا من هنا ؟ وهؤلاء لا يخرجون إلّا بالحرب "، وقد كان عمره حينها 07 سنوات فصنعت له حكايات أمّه ،وحدسها بالمستقبل السّدوة التي حاك عليها طموحه[24]، ومشواره السّياسي وحربه التي سيشنّها على الاستعمار في تونس وخارجها من أجل التحرّر والانعتاق .

ومع بداية عمله السّياسي ارتبط الثّعالبي ببعض رجال السّياسة والإصلاح من الأوربيّين وخاصّة الفرنسيين منهم ممّن كانوا يمثّلون التيّارات الاشتراكية والرّاديكاليّة

والليبرالية التي كوّنت الجمعيات والصّحف، وعملت على الانتصار لمبادئ الثّورة الفرنسيّة والنّاقمة على العنصريّة المعادية لشعوب المستعمرات، ومن بينهم الاشتراكي " روني بوياك " (Roné Bouyac) صاحب جريدة " الليبيرال "، والاشتراكي الرّاديكالي " إيميلديستري "(Emile Destrées) صاحب جريدة "البريد التّونسي"و"ريمون كولرات"(Raymond Colrat) مؤسّس نادي الجمهوريين بتونس سنة 1905، ومن فرط إعجاب عبد العزيز الثّعالبي بالأفكار التحرّريّة فقد انظمّ إلى تنظيمات تتبنّى أفكارا تحرّريّة، وتدعوا إلى حقوق الإنسان، من ذلك انضمامه إلى الفدراليّة التّونسيّة للفكر الحرّ، التي تأسّست سنة 1903 بتونس والرّابطة الفرنسيّة للدّفاع عن حقوق الإنسان "[25]، بحثا عن مؤيّد ومناصر له ضدّ المستعمر الفرنسيّ.

2.روح الإصلاح :

اعتقد الثّعالبي بأنّ خلاص الأمّة العربيّة والإسلاميّة إنّما يكمن في إحداث إصلاح شامل سياسي واجتماعي واقتصادي وديني وفكري خاصّة بعدما ما تحوّلت معظم الدّول العربيّة والإسلاميّة إلى مستعمرات أوربيّة، وما آل إيه حال الخلافة الإسلاميّة من ضعف مركزيّة سلطتها حتّى باتت تنعت بالرّجل المريض الذي لم يعد يقوى حتّى على الدّفاع عن نفسه وممتلكاته .

انطلق الثّعالبي في تفكيره العام من مبدأ يقيني في نفسه قائم على العقيدة والدّين، لأنّ هذا الأخير في نظره هو قوام الأمم وعليه مدار سعادتها، وفيه نجاحها، " وهو سلك للنّظام الاجتماعي، ومرقاة للتقدّم ومعراج للفلاح، وما اتّحدت أمّة بغير دين وما وضع نظام لغير اتّحاد، وما أتاح الله شيئا للبشر بجميع أهوائهم، ويقرّبهم زلفى من بعضهم سوى الدّين " وهذا الاعتقاد بأهميّة الدّين ، وحتميّته وبدوره في جميع الميادين

ماهو إلّا مجرّد مبدأ تتبعه تفاصيل كثيرة، وتتفرّع عنه فروع لا حصر لها لأنّ الشّرائع الإلهيّة أصول عامّة يرجع إليها في سنّ الأنظمة وترتيب الأحكام والقوانين[26].

وبما أنّ هذه الشّرائع أصولا عامّة فذلك يعني أنّ للإنسان دور في تطويرها، واستنباط الأحكام منها بطريق الاجتهاد، على أن تكون ملائمة لمقياس عقل الأمم ونفسيّتها ومسايرة لاحتياجاتها، وكافلة لنهضتها وتقدّمها لأنّ تعطيل الاجتهاد سيؤدّي إلى تعطيل حكم الدّين ورميه بالجمود عن السّير مع الحياة، وإمّا إلى توهين نواميس الحياة وتعطيلها[27].

كانت رؤية الثّعالبي للدّين مبنيّة على قاعدة السّيادة، والخضوع" فالأمم لا تسود ولا ترقى ولا تسعد ولا تشقى إلّا بمقدار بعدها وقربها من دينها، فالقرب من الدّين محكّ العزائم ... ولولا الدّيانات ماتباينت الأفكار ولا تبارت الشّعوب في إنشاء المقذوفات ،ولا تمادت الأقوام في اختراع المدمّرات وخصوصا في هذا العصر الذي تقوّت فيه أوربّا المسيحيّة"[28]، وبسبب البعد عن الدّين تخلّفت البلاد الإسلاميّة ،وأصبح الفراغ واضحا في حياتها العلميّة ومقوّماتنا الاجتماعية بسبب" النّقص في تقويمنا الأخلاقي النّاتج عن قلّة الشّعور بالدّين والقوميّة،وانحطاط المدارك في فهم المعاني الرّوحيّة...واتّخاذ الدّين مأكلا، ومرتزقا بعد أن كان خلقا و سيرة"[29].

وإلى جانب الدّين دعى الثّعالبي إلى التّأكيد على دور العقل، و تحريره من القيود لينطلق في أداء مهمّته التّنويريّة وفهم مقاصد الدّين، أين تظهر الدّعوة إلى العقلانيّة وهي مطبوعة بطابع تاريخيّ ،وأنّ عدم استعمال العقل أو تعطيله يعني الجمود الذي لا يدلّ إلّا على التأخّر والسّكون في الماضي التّليد ،لذلك انتقد الثعالبي العقل العربي والإسلامي المتحجّر لعدّة أهداف :

1.السّعي إلى بلورة فكر ديني وسياسي واجتماعي متحرّر من الجمود والانكماش.

2.اتخاذ هذا الفكر المتحرّر قاعدة فكريّة ،وأساسا للأفكار التي تقود النّضال والمقاومة ضدّ الأهداف الاستعماريّة.

3.الطّموح إلى ربط هذا الفكر بالممارسة السّياسيّة الوطنيّة، والاستمراريّة في العمل الإصلاحي في تونس والوطن العربي[30].

وذهب الثّعالبي إلى أنّ الإسلام والدّعوة إليه قد ابتليا بعدوّين؛ هما الجامدون من أبناء البلاد الذين يتّهمون كل من يكتب عن التحرّر بالكفر والإلحاد، والمستعمرون، لذلك كانت الحاجة إلى وجود مصلحين مجدّدين يرشدون المجتمع الإسلامي ويقوّمونه، وفقا لعدّة أسس رأى الثّعالبي في اتباعها اتّباعا سليما ضمانا للوصول إلى الهدف المنشود[31]، وهي :

1- الدّين الإسلامي باعتباره مصدر التوجيه ووسيلة نشره الدّعوة والتناصح .

2- "تخليص العقليّة الإسلامية من شوائب الجهل والأوهام والتعصّب ونشر التّعليم وتأويل القرآن تأويلا صحيحا وحقيقيّا واجتماعيّا".

3- البحث في تاريخ الديانة الإسلامية وعقائدها وآدابها وعاداتها وسائر أحوالها الاجتماعيّة حتّى يقف عن كثب على حقائق الإسلام وجوهره.

4-يجب جعل قانون للسّير في وجهة الإصلاح يرتاح إليه العاملون ويكون رائدا لأعمالهم.

5-أنّ خدمة الأمّة الإسلامية تقوم على دعوة الطّوائف الإسلامية لعقد مؤتمر عام في إحدى بلدان العالم الإسلامي للبحث عن العوارض والأسباب التي أودت بها إلى الانحطاط والتّقهقر.

6- ضرورة البحث عن الطّرق الموصلة لتأسيس شركة ماليّة، يخصّص ريعها للمصاريف التي تلزم.

7- يجب البحث عن تشكيل إرساليّات دينيّة تبعث إلى سائر الممالك الإسلامية ، تحمل إلى أهلها القرآن وتعلّمه للناس وتذكّرهم بآياته ومواعظه الحسنة، مع تخصيص إرساليّة من تلك الإرساليات لترسل إلى الحجاز في كلّ موسم حجّ، يلقّنون المسلمين هناك مايجب عليهم.

8- يجب نشر جرائد باسم الدّين باللغات الأربع : العربية والفارسية والتركية الأورديّة (لغة مسلمي الهند) وأن لا تخوض إلّا في المباحث الإسلامية، وفيما يتعلّق بشؤون الإسلام شرط أن تنشر مجّانا ليعمّ نفعها.

9- "يجب أن تنشأ مدرسة دينيّة محضة، يتربّى فيها الأفراد الذين تتشكّل منهم الإرساليات لتكون تربيتهم مكتملة الشّروط"[32].

ومن ناحية أخرى كان للمجتمع دور في بناء فكر الثعالبي الذي كان يرى ضروبا من الشّعوذة من بعض رجالات ومشائخ الطّرق الصّوفيّة والزّوايا بدعوى أنّها من تعاليم الدّين الإسلامي فيأكلون أموال النّاس بالباطل ويتلقّون الإعانات والتبرّعات والصّدقات والنّذر والأوقاف دون أن يخدموا مصالح البلاد والعباد[33] الأمر الذي جعله يهتمّ بقضايا المجتمع وبضرورة إصلاحه وتقويمه، لذلك هاجم الطرقيّين والأولياء في الأماكن العامّة، وهو ما أدّى إلى محاكمته من قبل محكمة الدريبة[34]،وسجنه في 28 جوان 1904 مدّة شهرين بتهمة التّطاول على الإسلام والأولياء[35] .

لقد دعى الثعالبي إلى التطوّر، وسعى إلى الإصلاح العام ضمن الخصوصيّة الإسلامية حتّى تكون القوانين والأحكام ملائمة لها ومنطبقة عليها، فالقوانين التي وضعت للأقوام الأوّلين مثلا حسب رأيه لا تصلح أبدا لأن تسيّر بها الأمم المتحضّرة ،والعكس بالعكس ،هذا التطوّر الذي يجب أن يبنى على الاتّحاد الذي هو أساس لكلّ مبدأ، وأوّل كلّ تعليم[36].

3.منابع الرّوح الوطنيّة (الدّين واللغة والتّاريخ) :

كان الثّعالبي متشبّعا بمبادئ العربيّة والإسلام، ومؤمنا بأهميّة التّاريخ والتّراث الإسلامي المشترك خاصّة لمنطقة المغرب العربي، ولا غرابة في ذلك فتنشئته منذ نعومة أظافره كانت تّنشئة إسلامية محضة، إذ تربّى في بيته الأسري المحافظ من جهة حيث حفظ القرآن الكريم في سنّ 11 سنة دون أن يلتحق بالكتّاب، وفي الجامع الأعظم بيته العلمي من جهة ثانية الذي زاول فيه دراسته منذ 1890 أين تلقّى مبادئ اللغّة وتعاليم الإسلام كذلك وفيه تعرّف لأوّل مرّة على آراء وأفكار المصلح جمال الدّين الأفغاني، فاشتهر لدى شيوخه وبين أقرانه بكثرة الأسئلة والملاحظات، وانتقد مناهج وأساليب التّعليم في الزّيتونة حيث كان يرى أنّ الدّراسة التّقليديّة تعتمد على طرق قديمة تكثر من النّقول وتتداخل فيها الشّروح والحواشي فانتقدها وانتقد كتب التّدريس وحمل على أصحاب الجمود والتّقليد ونادى بضرورة التّغيير والإصلاح، فنقم منه أساتذته واعتبروه ملحدا [37]، فضلا عن مواصلة تعليمه في مصر أين تابع الشّيخ عبد العزيز الثّعالبي دروس الأزهر الشّريف في الفلسفة والتّفسير والحديث واللغة، وحضر دروس محمّد عبده في التّفسير والعقيدة والمنطق واتّصل بالشّيخ رشيد رضا والشّيخ توفيق البكري والشاعر معروف الرصافي والزّركلي وأحمد زغلول والشيخ السكندراني وقاسم أمين وغيرهم، والتقى بعلماء من الإباضيّة منهم سليمان الباروني ومصطفى بن إسماعيل، وتعرّف على كتّاب ومفكّرين مسيحيين كفرح أنطوان وعبد الله البستاني وفارس نمر واليازجي ونيكولا الحدّاد وجرجي زيدان وغيرهم[38]،ممّا كان له الأثر في ترسيخ أهميّة المقوّمات العربيّة والإسلاميّة في فكر الثّعالبي.

رأى الثّعالبي في الدّين الإسلامي نقطة البداية لأيّ مشروع سياسي أو تربوي أو اقتصادي أو ثقافي لأنّه من أرقى وأكمل الشّرائع التي جاءت لترقية المجتمعات البشريّة

وهدايتها وأنّ هذه الأخيرة هي سبيل التطوّر والانتقال، أمّا اللغة فاعتبرها فعل حضاري في أيّ مجتمع، حيث أنّ الأمم العظيمة المعاصرة لا تنفكّ ساعية في نشر و تعميم لغتها، ليس في بلادها فحسب، بل في مختلف أنحاء العالم، ولأجل ذلك تجدها تشيّد المدارس في مختلف الأصقاع، وتؤلّف البعثات وتحشد العلماء وترصد الأموال للتّعليم، اهتماما بنشر لغتها وآدابها، لعلمها أنّ انتشار سيادتها ونفوذها إنّما يتوقّف على نشر تعميم لغتها[39]، لذا يتطلّب من العرب العمل على تهذيب العربيّة، وتطويرها بإصلاح الحروف، والحركات العربيّة نفسها مع زيادة بعض حركات أخرى مهمّة تضبط مخارج الحروف التي يصعب ضبطها كحركات الإشباع والمدّ[40].

وفي الوقت ذاته كان الثّعالبي شغوفا بالمطالعة منذ صغره، و هو ماجعله يقرأ كلّ ما كتب عن شمال إفريقيا، ويتفقّه في تاريخه، ووعت ذاكرته أمجاد قومه الماضية، ورأى أنّ أولئك الذين أسّسوا ملكا ضخما على دعائم من الحضارة الذهنية والماديّة ليسوا منقطعي الصّلة بأبنائهم الذين يسكنون اليوم أراضيهم، ويتسمّون بأسمائهم ويعيشون بدمائهم ويرثون تاريخهم وأنّه لكي" يعيد هذا التاريخ سيرته الأولى أراد أن يبدأ من أول الطريق فيشعل في نفس المغاربة من حدود طرابلس الغرب إلى المحيط الأطلسي حميّة قوميّة فيدرس اقتصاديات البلاد وحالتها الاجتماعيّة، والثّقافيّة، والأخلاقيّة دراسة وافية، ليشرع فيما بعد في مواجهة هجمات وغارات الغرب التي تستهدف استنزاف ثروات المنطقة[41]، وبذلك تكوّنت لديه عاطفة قويّة وعقيدة وطنيّة مؤسّسة على العقيدة الدينيّة والنّظم الاقتصادية، والعلميّة والأخلاقية، ومبنيّة على حبّ الوطن وواجب الذّود عنه بشتّى الأساليب والوسائل.

إنّ نظرة الثّعالبي للتّجربة التّاريخيّة كانت من منطلق أثرها الواضح في البناء العام للأمّة العربيّة، وإن تراوح ذلك بين الاندفاع أحيانا والانكماش أحيانا أخرى، حيث

يصعب فهم الرّوح الإسلامي دون أن يبنى هذا الفهم على التّراكم التّاريخي لما مرّ على العرب من أديان وحضارات، وهذه الفكرة مرتبطة بالسّياق العام للتطوّر الذي يجعل الأمم تنتقل من طور السّذاجة والوهن والخنوع إلى طور السّيادة والسّيطرة، وهو ما ينطبق على الأمّة العربيّة التي رغم ما أصابها من فتوق وخروق إلا أنّه لا يمكن إنكار ما استفادته من الأحداث والعبر التي مرّت بها وهي تحت سلطة الأجنبي، والاستفادة من الآخرين تكون محكومة بضوابط خاصّة لأنّ لكلّ أمّة حالات تخصّها لا تشبه حالات غيرها ماثلة في تقاليد وعادات وأخلاق تستدعي أن تكون أحكامها ملائمة لها ومنطبقة عليها[42].

4.الوحدة العربيّة والإسلاميّة :

اعتبر الثّعالبي تحقيق وحدة العالم العربي والإسلامي شرطا من شروط نهضته وتخلّصه من ربقة المستعمر الأجنبي ،لذلك شغلت فكرة الوحدة حيّزا مهمّا في فكره ونشاطه داخل تونس وخارجها، وقد بدأ ذلك منذ تأسيسه لجريدة سبيل الرّشاد، ومن خلال المقالات التي كان يبعث بها إلى الصّحافة المصريّة الدّاعية لإنقاذ الخلافة من التدهور الذي أحاط بها[43]،وقد اتّضح توجّهه الإسلامي الوحدوي في إطار الجامعة الإسلامية منذ 1895 ، ثمّ نما مع الزّمن خصوصا بعد رحلته الأولى إلى المشرق سنة 1896، ثمّ لما عاد إلى الأستانة منفيّا عام 1912 [44]، أين عمل مفتّشا للمكتبات التّابعة للأوقاف وسعى إلى إنشاء تنظيم سرّي بواجهة جمعيّة طلابية مغاربيّة ليتسنّى له العمل على تحقيق مشروعه المتمثّل في الوحدة الإسلامية[45]،كما خالط صفوة علماء المسلمين أمثال محمّد عبده ورشيد رضا، وعبد الرحمان الكواكبي، وتأثّر بهم وبأفكارهم ليدعوهم بعدها عام 1897 إلى عقد مؤتمر إسلامي لبحث شؤون، ومستقبل العالم العربي والإسلامي[46].

وهو ما جعل الثّعالبي يعتبر فكرة الجامعة الإسلاميّة التي دعا إليها جمال الدّين الأفغاني وتبنّاها السّلطان عبد الحميد الثّاني ضرورة حتميّة لأنّه من شأنها أن تنصف الأمم المستضعفة وتدفع ظلم الدّول المتسلّطة، وأكّد أنّ العالم الإسلامي ليس عدوّا لأحد ولا لأيّ دولة ولا حتّى أوربا، وأنّ الغاية من مشروع الجامعة الإسلامية هو تحرير الأقطار الإسلامية من السّيطرة الاستعماريّة، وجعل أهالي هذه الأقطار يعيشون أحرارا آمنين في أوطانهم متضامنين مع سائر العالم، مادّين يد العون إلى غيرهم من الشّعوب الشّرقيّة المرهقة[47].

رابعا : أبعاد الفكر التحرّري للثّعالبي الوطنيّة والقوميّة :

1.البعد الوطني :

مثّلت قضيّة تحرير تونس الرّكيزة الأساسيّة في أفكار وجهود عبد العزيز الثعالبي وكان هدفه الأوّل تخليص البلاد والعباد من كلّ ماهو دخيل على المجتمع التّونسي بدء بتنوير عقول التّونسيين، ورفع الجمود الذي أصبح السّمة المميّزة له من خلال تبنّيه للمطالب الإصلاحية بادئ الأمر لأنّه كان يرى في ذلك سبيلا لمقاومة المستعمر والحصول على حريّة التونسيين وحقهم في الاستقلال، و لتحقيق هذا الأخير نشط عمله الوطني الذي سخّر له كلّ الوسائل، وقاد مقاومة شرسة ضدّ مختلف سياسات فرنسا الاستعماريّة، حتّى أصبح يمثّل حجر عثرة أمام سلط الحماية التي حاولت التخلّص منه فضيّقت عليه الخناق حتى غادر تونس، ولما رجع إليها مارس نشاطه في إطار حركة الشّباب التّونسي إلى غاية 1912، حيث على إثر أحداث مظاهرات الزلّاج 1911 وحادثة التراموای 1912 بالعاصمة تونس أصدرت الإدارة الفرنسيّة في 13 مارس قرارا بنفي زعماء الحركة الوطنيّة التونسية ،وعلى رأسهم عبد العزيز الثعالبي ،فنفي إلى فرنسا ومنها سافر إلى ألمانيا[48]، ثمّ إلى الأستانة التي دخلها في نوفمبر 1912[49]، وبعد عامين

رجع إلى تونس بعد أن رفع عنه قرار النّفي ،وعقب الحرب العالميّة الأولى شارك في الوفد الذي رفع عريضة للرّئيس الأمريكي ولسن أثناء عقد مؤتمر الصّلح بفرنسا جويلية 1919 طالب فيها باستقلال تونس[50]، وفي مارس 1920 أسّس الحزب الحرّ الدّستوري التّونسي[51] الذي سيواصل من خلاله مطالبه ،إلى أن قامت السّلطة الفرنسيّة بنفيه مرّة أخرى فغادر تونس مضطرّا في 26 جويلية 1923[52]، ولن يتمكّن من العودة إليها إلّا في 09 جويلية 1937[53] .

2.البعد المغاربي:

كان الثّعالبي يتابع تطوّرات الأحداث في بلدان المغرب العربي التي كانت تعاني هي أيضا من السّيطرة الاستعماريّة، فأخذت قضية الجزائر حيّزا هاما في اهتمامات الثعالبي بحكم أصوله الجزائريّة وانتمائه إليها، وبحكم الرّوابط التاريخيّة والجغرافيّة المشتركة بين الجزائر وتونس منذ القدم، فضلا عن أنّ تونس كانت قبلة الكثير من الجزائريين سواء لمواصلة تعليمهم في جامع الزّيتونة أو عن طريق الهجرة بسبب سياسات الاستعمار الفرنسي الذي تمكّن من استكمال احتلال تونس سنة 1881.

كانت الجزائر موطنه الأصليّ أوّل وجهة للثّعالبي بعد أن ضاقت به السّبل في تونس فزارها في شهر أكتوبر 1895 م ،حيث يصف شعوره مخاطبا إيّاها قائلا " أوّل يوم وطئتك فيه قدمي شعرت بهزّة الفرح وأدركت لذّة السّرور،وقبله ما كنت أعرف الفرح ولا أدري ما السّرور "،وقد زار خلال رحلته عدة مدن سوق أهراس وسطيف وقسنطينة وعنابة وسكيكدة والجزائر العاصمة[54]، محاولا الاطّلاع على أحوال أهلها وأخلاقهم وعاداتهم المختلفة ، وكلّ ما له علاقة بمعنويّاتهم لأنّه كان يعتبرها أسس وأركان الإصلاح الاجتماعي ،وفي ذلك دليل على ولعه ، وشغفه بالإصلاح منذ شبابه[55].

لم تدم إقامته في الجزائر أكثر من شهريّن لأنّها كانت فترة قمع وهجرة جماعية للجزائريين، فلم يستطع الثعالبي تحمّل الأوضاع التي كان يعانيها الجزائريّون بسبب سياسة الظّلم، والتسلّط الاستعماري فقفل راجعا إلى تونس[56]،وبعد تأسيس حزبه أخذ على عاتقه العمل من أجل التّنسيق بين الحركات الوطنيّة المغاربيّة من خلال توحيد وسائل وأساليب مواجهة السّياسة الاستعماريّة في تونس والجزائر والمغرب ،وهو الأمر الذي ناقشه الشّيخ الثّعالبي عقب عودته لتونس في جويلية 1937 مع الشّيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، لذلك تفاعل أنّ الشّيخ عبد العزيز الثّعالبي مع مختلف الأحداث التي وقعت في الجزائر خلال الثّلاثينات من القرن العشرين، خاصّة مع بروز الجمعيّة وحزب الشّعب الجزائري اللذان كانت لهما علاقة بالحزب الدّستوري القديم، وبقادته وبتشكيلات الحركة الوطنيّة التّونسيّة عموما، واشتركوا في الكثير من النّقاط سواء في التوجّهات الفكريّة أو المبادئ الإيديولوجيّة أو أساليب مواجهة الاستعمار[57].

اعتبر الثّعالبي القضيّة الجزائريّة قضيّة كلّ العرب والمسلمين ومن بينهم التّونسيّين وساندها في كلّ مرّة، وندّد بما كانت تقوم به السّلطات الاستعماريّة، حيث تفاعل الحزب الدّستوري مع الأحداث التي عاشتها الجزائر، فمع تزايد النّشاط الوطني في الجزائر وفرنسا أقدمت السلطات الفرنسيّة على غلق مدارس جمعيّة العلماء في عدّة مناطق من الوطن وأغلقت المساجد في وجه المصلحين والعلماء، وأصدرت عدّة قرارات بخصوص ذلك منها قرار فيفري 1933 القاضي بغلق المساجد والمدارس الحرّة في وجه العلماء الأمر الذي أدّى إلى احتجاج رجالات الجمعيّة والعديد من النوّاب الذين قدّموا استقالتهم في قسنطينة والجزائر ووهران[58]، وفي غمرة ذلك أصدر الحزب الدّستوري بيانا ممّا جاء فيه: " نظرا لمساس المناشير بالرّوابط التي تربط بين الشّعبين ببعضهما ،وبجهاز الحياة المشتركة، فقد تألّم الشّعب التّونسي لتلك القرارات ويحقّ له أن يتألّم ،والحزب الحرّ الدّستوري يرى

أنّ تحدّي فكرة النّهوض الإسلامي بمضايقة صحافييه ومدارسه الحرّة ومحاضراته لا يكون من نتيجة ضعف الفكرة الإسلامية في قطر دون آخر من هذه الأقطار المتجاورة ...لذلك يعلن الحزب باسم الأمّة التّونسيّة استنكاره لتلك السّياسة، واحتجاجه على القائمين بها من أصحاب الأفكار الارتجاعيّة بالجزائر"[59].

وعقب أحداث قسنطينة 1934[60] ربط الحزب الدّستوري القديم تلك الأحداث التي كان سبب شراتها أحد اليهود بالنّشاط الصّهيوني الذي يرمي إلى إثارة اليهود ضدّ المسلمين لخلق جوّ من اللااستقرار واللاأمن لدى اليهود لدفعهم للهجرة إلى فلسطين في إطار التّبشير بالوطن القومي ، وطالب بمقاومة كلّ من يحاول خلق الفتنة في الجزائر من أذناب الصّهيونيّة[61]، ومع عقد المؤتمر الإسلامي جوان 1937 دعا الحزب الدّستوري القديم أعضاء المؤتمر إلى الاهتمام بالقضايا الرّئيسيّة، وهي القضايا الإسلامية كمسألة التّعليم والأوقاف والقضاء[62]، وهي القضايا نفسها التي ركّز عليها برنامج الحزب في تونس، وتواصل دعم هذا الأخير للجزائريين من خلال موقفه من حلّ سلطات الاحتلال لنجم شمال إفريقيا 1937 الذي اعتبره ضربة اعتماد أحزاب سكّان بلاد المغرب على الأحزاب الفرنسيّة[63].

ولما كان عبد العزيز الثّعالبي يؤمن إيمانا راسخا بفكرة الخلافة الإسلامية فقد أثّرت فيه أحداث طرابلس الغرب عشيّة الاحتلال الايطالي في 29 سبتمبر 1911، وجعلته أكثر حماسة وثوريّة، فسخّر قلمه ولسانه وكلّ طاقاته مدفوعا بالعامل الدّيني للدّفاع عن الخلافة وشدّ أزر المقاومة في طرابلس ، والتّعاون مع القادة العثمانيين[64].

جعل الثّعالبي جريدة الاتّحاد التّونسي[65] وسيلة للدّعوة إلى الجهاد، ودعا إلى مساعدة المجاهدين الطّرابلسيين ماديّا ومعنويّا، وقد عبرت جريدته بقوّة عن دعم وتعاطف التّونسيين لهم، فاستقبلوا الجيش العثماني المارّ بتونس استقبال المجاهدين الأبرا، ومنهم من

تطوّع معه مجاهدا في سبيل الوطن والخلافة الإسلامية، واستمرّ يكتب ويخطب ويجمع التبرّعات والأدوية وفتح لها سجلّات خاصّة لمدّ الكفاح الليبي، حتّى أصبح الثّعالبي قائدا شعبيّا التفّت حوله الجماهير التونسيّة، وهو ما أثار غضب سلط الحماية منه، وأخذت تتحيّن له الفرص، ومع تعاظم حقد التّونسيين على الايطاليين حدثت مشكلة الزّلاّج، ومن بعدها مظاهرات التراموای 1912 التي شارك فيها الثعالبي ممّا أدّى بالسّلطات الفرنسيّة إلى إصدار قرار نفيه رفقة عدد من زملائه [66]، وإبعادهم عن السّاحة الوطنيّة في تونس من جهة، ودعمهم للجهاد في طرابلس وبرقة من جهة ثانية.

وانطلاقا من مبدأ الوحدة العربية والإسلامية لم يتصدّ الثّعالبي وحزبه للسّياسة الاستعماريّة في تونس فحسب بل جعل الدّفاع عن قضيّة المغرب الأقصى جزء من اهتماماته حيث وقف حزبه بين سنوات 1921 – 1926 موقفا مضادّا للسياسة الفرنسيّة التعسّفيّة ضدّ ثورة الرّيف التي مثّلت أمل التّونسيين في تحقيق استقلال بلدان المغرب العربي، وتصوّروا زعيمها محمّد بن عبد الكريم الخطّابي زعيما للحريّة والاستقلال، وهو ما جعل الدّستوريين التّونسيين يؤكّدون في اجتماع الحزب شهر ماي 1925 امتناعهم عن العمل في صفوف الجيش الفرنسي في المغرب الأقصى، واعتبر محي الدّين القليبي أنّه من الإجرام والكبائر أن يحارب التونسيّون إخوانهم الرّيفيين في الدّم والدّين، وهو ما أحدث تمرّد العسكريّين التّونسيّين عن الجيش الفرنسي [67].

كما أعطى الحزب الدّستوري القديم اهتماما كبيرا لمسألة الظّهير البربري، وأقرّ بأنّ هدف السّلطة الاستعماريّة من ورائه هو عزل تطبيق التشريع الإسلامي في منطقة القبائل تمهيدا لدمجهم وتمسيحهم، وبالمقابل أثنى على معارضة الحركة الوطنيّة في المغرب له وجاء هذا التّفسير انطلاقا من المبادئ التي يرتكز عليها الحزب من جهة، وللأبعاد والمبادئ الإيديولوجيّة التي ينطلق منها في نشاطه السياسي محليّا وإقليميّا وحتّى عالميّا [68].

وواصل الحزب دعمه للعمل الوطني المغربي، حيث ندّد سنة 1937 بقرارات سلط الحماية الفرنسيّة ضدّ الوطنيين المغاربة واعتقالهم أمثال علال الفاسي، وعمر بن عبد الجليل وغيرهم عقب المظاهرات التي شهدتها بعض مدن المغرب الأقصى خلال ذات السّنة واعتبر أنّ "دافع الأحداث هو الأسباب السّياسيّة التعسّفيّة التي تسلكها السّلطات الفرنسيّة وأعوانها المحليّون، ولإصرار الرجعيّين في تنفيذ السّياسة البربريّة وتأييد التّبشير".

وللتّعريف أكثر بالقضيّة المغربيّة سخّر الحزب جريدته" الإرادة " لعرض أحداث المغرب الأقصى من خلال نشرها لعدّة مقالات، ومتابعتها للتطوّرات التي كانت تحدث فيه لتعطي صورة للمواطن التّونسي عن الأوضاع فيه[69]، ولتكشف حقيقة السّياسات الاستعماريّة ضدّ المغاربة.

3.البعد العربي والإسلامي :

يعود اهتمام الثّعالبي بالقضايا العربيّة والإسلامية للرّوابط التّاريخيّة والحضاريّة التي اعتمد عليها في رسم إيديولوجيّته ومرجعيّة حزبه الدّستوري القديم التي ينهل منها، والقائمة أساسا على العروبة والإسلام[70]، فساند الشّعوب العربيّة والإسلامية في مصر، وسوريا وغيرها، ودعمها بقلمه وصحافته وحزبه ودافع عن حقوقها أمام المدّ الاستعماري الأوربّي غير أنّ قضيّة فلسطين مثّلت محور ذلك الاهتمام .

في البداية كان اهتمام الحركة الوطنيّة التّونسيّة بالقضيّة الفلسطينيّة بعد انتهاء الحرب العالميّة الأولى ،وإقرار الانتداب البريطاني على فلسطين محدودا وذلك لعدّة اعتبارات منها :

- التباس المفاهيم لدى النّخبة السّياسيّة التّونسيّة التي لم تدرك طبيعة الحركة الصّهيونيّة ولا أهدافها تماما، ولا طبيعة الصّراع على أرض فلسطين .
- ركود الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة و عدم قدرتها على التّعبير عن ذاتها.

- دور مؤسسات الحماية الفرنسيّة بتونس في عرقلة تفاعل التّونسيين مع أحداث فلسطين.

لكن سرعان ما تزايد انشغال النخبة التونسية بالمسألة الفلسطينيّة خاصّة بعد تحوّل الانتداب الفرنسي والبريطاني في المشرق العربي إلى استعمار متحالف مع الحركة الصّهيونيّة، وتصاعد المقاومة الوطنيّة في كلّ من العراق وسوريا من جهة، وتأثير قضيّة تجنيس اليهود التّونسيّين بالجنسيّة الفرنسيّة، حيث كانت الأولى سنة 1909، والثانية في سنة 1923، وهو ما كشف عدم استجابة يهود تونس لدعوة النخبة التونسيّة للنّضال سويّا من أجل تطوير التّشريع التّونسي باعتبار أنّ اليهود أفرادا تونسيين، كما عكس حدود انتماء اليهود لتونس وانحيازهم إلى الدّولة الحامية المستعمرة، ووقوفهم بجانبها دون التخلّي عن حلم العودة إلى أرض الميعاد، وإلى جانب ذلك تزايد النّشاط الصّهيوني بالبلاد التّونسيّة منذ أواخر العشرينات وتضاعف خلال الثلاثينات كتجميع الأموال لفائدة اليهود الصهاينة في فلسطين، وتجاوب يهود تونس مع ما كان يحدث في فلسطين كرفع الأعلام الصهيونية، والاحتفال بالمناسبات ذات العلاقة بالصهيونية، وتشجيع يهود تونس على الهجرة إلى فلسطين[71]، والزّيارات التي قام بها بعض الدعاة الصهاينة إلى تونس ،والنّقاشات التي تمّت بينهم وبين بعض المثقّفين والسّياسيين حول طبيعة المشروع وأهدافه وهو ما أتاح لبعض أفراد النّخبة السياسية التونسية الوقوف على جوهر الحركة الصّهيونيّة وحقيقتها[72].

كان الحزب الدّستوري القديم يعتبر قضيّة فلسطين أنّها " قضيّة بين كافّة المسلمين الذين لهم في فلسطين مقدّساتهم التي تشمل في قداستها سدانة تلك المقدّسات، وحفظ ذلك الوطن من أبنائه المسلمين، وقضيّة عربيّة خاصّة تهمّ في المنزلة الأولى الأمّة العربيّة النّاهضة المتحفّزة لاحتلال مكانتها التاريخيّة في العالم"[73].

ومن هذا المرتكز كان الشّيخ الثّعالبي من أبرز الشّخصيّات الوطنيّة التّونسيّة التي أولت اهتماما كبيرا بالشّأن الفلسطيني بل وشاركت في أحداثها، ويرجع ذلك لتوجّهه العروبي الإسلامي ولمكانة فلسطين الحضاريّة والدّينيّة، وللعلاقات التي كانت تربطه بالشّيخ الأمين الحسيني مفتي فلسطين منذ انعقاد المؤتمر الأوّل بالقدس[74].

فبعد أن غادر الثّعالبي تونس سنة 1923 زار بلاد الشّام، وتمكّن من تمتين علاقاته بالنّخب العربيّة المختلفة، ومثّل بذلك همزة وصل بينها وبين نظيرتها التّونسيّة وقد ساهم هذا التّفاعل عبر الصّحف والمراسلات والكتب في فضح فكرة الصّهيونيّة وطبيعة صراعها مع العرب خاصّة بعد أحداث البراق 1929 [75].

ومع تزايد الخطر الصّهيوني الذي بات يهدّد الأمّة العربيّة والإسلامية، أصبحت ضرورة دراسة الوضع ملحّة، فانعقد المؤتمر الإسلامي بالقدس الشّريف في ديسمبر 1931[76] الذي جاء بهدف النّظر في شؤون المسلمين عامّة وللدّفاع عن إسلاميّة بيت المقدس وعروبته مع تزايد التهديدات الصهيونيّة له، وإعداد الوسائل الكفيلة بذلك ولحماية الدين الإسلامي، وإعطاء القضيّة الفلسطينيّة أبعادا إسلاميّة عالميّة، وقد تزامن عقده مع تنامي حركة هجرة اليهود لفلسطين والنّشاط الصّهيوني في العالم، وتطوّر علاقته مع سلطة الانتداب، وعدم قدرة الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة على مواجهة هذا التّحالف لوحدها[77].

لعب الثّعالبي دورا فاعلا في المؤتمر من خلال مساعدته للحاج أمين الحسيني في تنظيم وإعداد المؤتمر الذي تناول قضايا العالم الإسلامي، وركّز على تأسيس الجامعات الإسلامية ونشر الدّعوة الإسلامية ومحاربة الامبريالية، فأوكلت له مهمة رئاسة اللجنة التحضيرية للمؤتمر،وأعدّ التّقرير العام باسم المكتب الدائم للمؤتمر،كما بذل جهودا لإقناع مؤسسة الأزهر ورئيس الحكومة المصريّة بالموافقة على حضور المؤتمر والتخلّي عن

الشّروط التي وضعتها للمشاركة فيه، وإيقاف حملات الدّعاية ضدّه، كما تولّى تحرير تقريرين بإيعاز من الشيخ أمين الحسيني أحدهما تعلّق بإنشاء الجامعة الإسلامية وأهدافها وكيفية إدارتها، والآخر تعلق بقضية الظّهير البربري[78]، وقد حثّ الثّعالبي أثناء تدخّلاته في المؤتمر على ضرورة إرسال بعثات من العلماء المسلمين إلى البلدان الإسلامية للدّعوة إلى الإسلام، وزرع روح الإيمان بجامعاتها، وفي الأخير صادق المؤتمر على قانون المؤتمر الدّستوري الذي ضمّ 17 فقرة، تحدّدت أهمّها في إنشاء منظمة إسلامية عالميّة تتألّف من هيئة تنفيذيّة دائمة تتشكّل من 25 عضوا واختير الثّعالبي ككاتب عام لها رفقة عدد من الشّخصيّات الإسلامية الأخرى[79].

ولم يقتصر دور الثّعالبي في القضيّة الفلسطينية في المشاركة في المؤتمر فحسب بل تعدّاها إلى ما بعده، حيث أسند إليه الحاج أمين الحسيني عقب المؤتمر مهمّة الدّعاية للقضيّة الفلسطينيّة وبعد انتفاضة سنة 1936 كلّفه بجمع التبرّعات من البلدان الإسلامية لصالح الشّعب الفلسطيني، لذلك أوعز لبعض مريديه أثناء ذات الانتفاضة لتأسيس لجان وطنيّة تسعى لمساندة فلسطين، من ذلك " لجنة إغاثة منكوبي فلسطين " التي تأسّست في ماي 1936 برئاسة أحمد بن ميلاد، ثمّ تأسّست " لجنة إسعاف فلسطين "برئاسة محمّد العيد الجباري، و" لجنة الدّفاع عن فلسطين " التي أسّسها عدد من المثقّفين والصّحفيّين لتتّحد هذه اللّجان الثّلاث بعدها في إطار لجنة واحدة حملت اسم" لجنة إغاثة فلسطين " ترأّسها الدّكتور أحمد بن ميلاد، والتي نشطت في جمع التبرّعات للفلسطينيّين ،والتّعريف بقضيّتهم و مشروعيّتها، ودعوة التّونسيّين لمؤازرة إخوانهم[80].

وقبيل الحرب العالميّة الثّانية ورغم الظّروف الصّعبة التي كان يمرّ بها عبد العزيز الثّعالبي عقب عودته إلى تونس سنة 1937 إلّا أنّ ذلك لم يمنعه من مواصلة دعمه

لقضيّة فلسطين، إذ وجّه كتابا سمّاه " الكتاب المفتوح " إلى رئيس الوزراء البريطاني شمبرلين (Chamberlain) دعاه فيه إلى تغيير سياسة بريطانيا تجاه العرب ، وإنصاف الفلسطينيين باسم الدّيمقراطيّة، وأن تمنح لهم حقوقهم المسلوبة، كما ندّد بالكتاب الأبيض – الذي وصفه بالأسود – واعتبره مظلمة رديئة غير قابلة للتّحقيق ومناقضة لحقوق الأمم والدّول، وما هو إلّا مساعدة لليهود لإقامة وطن لهم في فلسطين، ومحاولة لتعطيل بناء الوحدة القوميّة للعرب، وفي نهايته أكّد له بعض الحقائق حول تاريخ فلسطين وقدرتها على طرد الغزاة مهما طال الزّمن، وأبرز له مطالب العرب، وهي إعطاء الحريّة لفلسطين ووقايتها من خطر الصّهيونيّة[81].

هكذا كانت نظرة الثّعالبي لقضيّة فلسطين أنّها مسألة حقّ وهويّة وتحرّر من السّيطرة البريطانيّة أوّلا ومن مزاعم اليهود في أحقيّتهم بها، ومن خطر الحركة الصّهيونيّة التي سرعان ما أحكمت قبضتها على البلاد خاصّة مع تشجيعها لعمليّات استيطان يهود العالم فيها ثانيا، ودعا في كلّ مرّة إلى ضرورة توحيد الجهود العربية والإسلامية لنصرة الفلسطينيين واسترجاع مقدّسات الأمّة.

الخاتمة :

في نهاية هاته الدّراسة التي اعتبرها مختصرة مقارنة بما يتميّز به فكر عبد العزيز الثعالبي وبما يحمله من دلالات عميقة، يمكن أن أوجز أبرز النقاط المستخلصة في الآتي :

1. لقد كان الفكر التحرّري لدى الثّعالبي منافيا ومعارضا لاستعباد الإنسان، وسلبه حريّته التي هي حقّ مشروع تكفله له كلّ القوانين الشّرعيّة والوضعيّة، واعتبر الاستعمار بكلّ أشكاله أكبر ظلم وعائق يمكن أن تعاني منه الشّعوب، لذلك جاء كفاحه طيلة مشواره السّياسي في تونس وفي سائر البلاد العربيّة والإسلاميّة مدافعا مناهضا له، وداعيا إلى تحقيق العدل والاستقلال.

2. لم يخرج الفكر التحرّري للثّعالبي من بوتقة الثّقافة العربيّة والإسلامية، رغم علاقاته بكثير من ذوي الإيديولوجيات الأخرى كالاشتراكيين التي كان من الممكن أن تؤثّر فيه، بل ظلّ متمسّكا ومتيقّنا أنّ اللغة العربيّة والإسلام هما أساس نهضة الأمّة، وعليه فقد حاول إصلاح المجتمع التّونسي، ونشر أفكاره لنهضة البلاد العربيّة والإسلاميّة وتحقيق وحدتها وتحريرها من السّيطرة الاستعماريّة.

3. كانت لأفكار الثّعالبي ومبادئه التحرّريّة أبعادها الوطنيّة التي انعكست في مقاومة مختلف سياسات وقوانين سلط الحماية الفرنسيّة، والمساهمة في يقظة الوسط التونسي والمطالبة بحقوق التونسيين المختلفة على رأسها الاستقلال، وحقّهم الشرعي في تسيير بلادهم دون أيّ وصاية خارجيّة، وأبعادها المغاربيّة التي تمثّلت في تبنّيه لقضايا دول المغرب العربي المستعمرة، وسعيه لتوحيد الكفاح بين الحركات الوطنيّة فيها، أمّا أبعادها المشرقيّة

(العربيّة والإسلاميّة) فمن خلال دعمه المطلق لكلّ الشعوب العربيّة والإسلاميّة المستضعفة خاصّة قضيّة فلسطين التي عدّها قضيّة الأمّة بأكملها، وأنّ نصرتها والدّفاع والذود عنها واجب كلّ عربيّ ومسلم .

الهوامش

1 : هو عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الثعالبي (786هـ / 1384 م – 875 هـ / 1470 م) ، صوفي من كبار المفسّرين ،وأعيان الجزائر وعلمائها ولد ونشأ بناحية وادي يسر بالجنوب الشرقي لمدينة الجزائر ، تعلم في بجاية وتونس ومصرو دخل تركيا ثمّ حجّ وعاد إلى تونس سنة 819 هـ ، ولّي القضاء على غير رضى منه ،له أكثر من تسعين كتابا منها " الجواهر الحسان في تفسير القرآن " . **ينظر** : عادل نويهض : **معجم أعلام الجزائر** ، مؤسسة نويهض للثقافة ، بيروت ، 1980 ، ص 90

[2] : مسعودة مسعود بو الخضرة : **الشيخ عبد العزيز الثعالبي و دوره في الإصلاح الإسلامي** ، ط1 ، المكتبة العصريّة بيروت ، 1995 ، ص 33 - 34

3 : أحمد طرفاوي : " عبد العزيز الثعالبي و بعض قضايا فكره من خلال مؤلّفاته 1875 – 1944 " ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر تخصص ضفتي البحر الأبيض المتوسط ، إشراف د. بن يوسف تلمساني ، قسم التاريخ ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة الجزائر 2 الجزائر ، 2011 / 2012 ، ص 18

4 : عبد العزيز الثعالبي : **سقوط الدّولة الأمويّة و قيام الدّولة العبّاسيّة (132هـ – 750م)** ، تحقيق حمادي الساحلي ط1 ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، 1995 ، ص 24

5 : مسعودة مسعود بو الخضرة : المرجع السابق ، ص 34

[6] : محمّد محفوظ : **تراجم المؤلّفين التّونسيين** ، ج1 ، ط2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1994 ، ص 213

[7] : يوسف مناصريّة : **دور النّخبة الجزائريّة في الحركة الوطنيّة التّونسيّة بين الحربين العالميتين 1919 – 1934** ، دار هومة ، الجزائر ، 2014 ص 122 - 123

[8] : نفسه ، ص 123

[9] : محمّد رحّاي :" الأبعاد الثّقافيّة والسّياسيّة في حركتي عبد العزيز الثعالبي وعلال الفاسي دراسة تاريخية وفكرية مقارنة " مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ الحركة الوطنية ، إشراف د.عبد الكريم بو صفصاف ، قسم التاريخ والآثار كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة منتوري قسنطينة ، 2004 -2005 ، ص 58 - 59

[10] : ولد سنة 1876 ، ينحدر من أسرة تركيّة عريقة من سكان الأناضول ، تتلمذ بالمدرسة الصادقية وبعد حصوله على شهادة ختم الدراسة فيها دعي إلى الإشراف على إدارتها بصفة وكيل لما كان يتمتع به من قدرة استيعاب ونباهة واجتهاد في العمل ، تمكّن من الحصول على الإجازة في الحقوق ،أنشأ سنة 1905 جمعية قدماء المدرسة الصادقيّة، أشرف على جريدة التونسي الناطقة بالفرنسية والتي صدر عددها الأول في 07 فيفري 1907 ، ثمّ أصدر أخرى ناطقة بالعربيّة وكلف

بتحرير برنامج حركة الشبان التونسيين ، ساهم في العمل الوطني التونسي ،توفي سنة 1918 . **ينظر** : الصادق الزمرلي : **أعلام تونسيون** ، تقديم و تحقيق : حمادي الساحلي ، ط1 ، دار الغرب الاسلامي ، 1986 ، ص ص 141 ،149

[11] : مسعودة مسعود بو الخضرة : المرجع السابق ، ص 35 - 36

[12] : محمد بن موسى الشريف : **عظماء منسيون في التاريخ الحديث** ، ج2 ، ط1 ، دار الأندلس الخضراء ، الرياض 2010 ، ص 14

[13] : محمّد رحّاي : المرجع السّابق ، ص 54

[14] : عبد العزيز الثعالبي : المصدر السابق ، ص 7

[15] : امحمّد يزير : " عبد العزيز الثعالبي وقضايا عصره (1876 – 1944) " ، مذكّرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر تخصص العلاقات بين المغرب والمشرق في العصور الحديثة والمعاصرة ، إشراف د. مصطفى نويصر ،قسم التاريخ ،كلية العلوم الإنسانية والاجتماعيّة جامعة الجزائر 2 ، 2010 – 2011 ، ص 99

[16] : محمد رحاي : المرجع السابق ، ص 191

[17] : حسن أحمد جغام : **أمّة اجتمعت في إنسان** ، منشورات دار المعارف ، سوسة (تونس) ، 1989 ، ص 100

[18] : عبد العزيز الثعالبي : **تونس الشهيدة** ، ط1 ، دار القدس ، بيروت ، 1975 ، ص 17

[19] : عبد المجيد كريّم : " العمل الوطني من الاحتلال إلى الحرب العالّميّة الأولى " ، **موجز تاريخ الحركة الوطنية التّونسيّة (مقاربة) 1881 – 1964** ، المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنيّة جامعة منّوبة ، تونس ، 2008 ، ص 98

[20] : امحمّد يزير : المرجع السابق ، ص 101

[21] : أحمد طرفاوي : المرجع السابق ، ص 36

[22] : صالح خرفي : **عبد العزيز الثعالبي من آثاره و أخباره في المشرق و المغرب** ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1995، ص 227 - 228

[23] : الفرنجة (الفرنسيين)

[24] : عبد العزيز الثعالبي : **تونس الشّهيدة** ، المصدر السّابق ، ص 6

[25] : محمّد رحّاي : المرجع السّابق ، ص 190

[26] : مسعودة مسعود بوالخضرة : المرجع السابق ، ص 116

[27] : محمّد رحّاي : المرجع السّابق ، ص 90

[28] : مسعودة مسعود بو الخضرة : المرجع السابق ، ص 117

[29] : عبد العزيز الثعالبي : **معجز محمد صلى الله عليه و سلّم** ، ط3 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1986 ، ص ص 6 ، 8

[30] : محمّد رحّاي : المرجع السابق ، ص 91

[31] : مسعودة مسعود بو الخضرة : المرجع السابق ، ص 119

[32] : نفسه ، ص 120-121

[33] : محمّد رحّاي : المرجع السّابق ، ص 50

[34] : محمّد محفوظ : المرجع السابق ، ص 214

[35] : محمّد رحّاي : المرجع السابق ، ص 50

[36] : مسعودة مسعود بو الخضرة : المرجع السّابق ، ص 124

[37] : نفسه ، ص 50

[38] : محمّد رحاي : المرجع السّابق ، ص 52

[39] : مسعودة مسعود بو الخضرة : المرجع السّابق ، ص 146 - 147

[40] : نفسه ، ص 147

[41] : حسن أحمد جغام : المرجع السابق ، ص 16 - 17

[42] : مسعودة مسعود بو الخضرة : المرجع السابق ، ص 131

[43] : أحمد طرفاوي : المرجع السابق ، ص 106

[44] : أحمد خالد : **الزعيم عبد العزيز الثعالبي و إشكالية فكره السياسي** ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 2001 ، ص 172

[45] : نفسه ، ص 138

[46] : أحمد طرفاوي : المرجع السابق ، ص 106

[47] : محمّد رحّاي : المرجع السابق ، ص 171

[48] : نفسه ، ص 54

[49] : حسن أحمد جغام : المرجع السابق ، ص 7

[50] : [50] : محمد محفوظي : " ماذا يجب أن تعرف عن المشكلة التونسيّة تاريخها –تطورها – كيف حلها ؟ " ، **مجلة المنار** ع 12 ، 28 نوفمبر 1952 ص 4

[51] : عبد العزيز الثعالبي : **تونس الشهيدة** ، المصدر السابق ، ص 20

[52] : نفسه ، ص 20

[53] : عبد العزيز الثعالبي : **الرحلة اليمنية 12 أوت – 17 أكتوبر 1924** ، تقديم و تحقيق حمادي الساحلي ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1997 ، ص 15 - 16

[54] : امحمّد يزير : المرجع السابق ، ص 37

[55] : أحمد خالد : المرجع السابق ، ص 84

[56] : مسعودة مسعود بو الخضرة : المرجع السّابق ، ص 36

[57] : محمد السعيد عقيّب : " **الحزب الحر الدستوري التونسي (القديم) 1934 – 1956** "، رسالة مقدّمة لنيل رسالة الدّكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف .د. حباسي شاوش، قسم التّاريخ، كليّة العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة الجزائر ، 2009 – 2010 ، ص 340

[58] : أبو القاسم سعد الله : **الحركة الوطنيّة الجزائريّة 1830– 1900** ، ج3 ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1992 ، ص 37

[59] : محمد السعيد عقيّب : المرجع السابق ، ص 344

[60] : هي أحداث وقعت في قسنطينة شهر أوت 1934 عندما انتهك أحد اليهود حرمة الجامع الأخضر ، ممّا أدّى لاستياء المسلمين ، حتّى تطوّر الوضع إلى مشادات ومواجهات عنيفة بين المسلمين واليهود . **ينظر** : علي مرّاد : **الحركة الإصلاحيّة الإسلاميّة في الجزائر** ، ترجمة محمّد يحياتن ، دار الحكمة الجزائر ، ص 197 – 198

[61] : الحركة الصهيونية : هي حركة سياسيّة عنصريّة ، اشتق اسمها من اسم جبل صهيون في القدس ، هدفت إلى إقامة دولة لليهود في فلسطين تحكم من خلالها العالم كلّه ، ويعتبر اليهودي النمساوي ثيودور هرتزل الدّاعي الأوّل للفكر الصّهيوني الحديث و المعاصر.

[62] : محمّد السّعيد عقيّب : المرجع السابق ، ص ص 345 ،347

[63] : نفسه ، ص349

[64] : عبد العزيز الثّعالبي ، **تونس الشهيدة** ، المصدر السابق ، ص 12

[65] : هي جريدة حركة الشّباب التّونسي ، أسسها علي باش حمبة ، شارك في إعداد فصولها عدد من الكتّاب أمثال البشير الفورتي والشاذلي درغوت والصادق الزميرلي وغيرهم ، صدر عددها الأوّل في 19 أكتوبر 1910 غير أنّها لم تستمر طويلا حيث توقفت بعد العدد السادس بسبب قانون منع الصحافة عقب أحداث الزلّاج . **ينظر** : محمّد رحّاي : المرجع السّابق ، ص 59

[66] : يوسف مناصريّة : المرجع السابق ، ص 139

[67] : نفسه ، ص 352- 353

[68] : محمّد السعيد عقيب : المرجع السابق ، ص 369

[69] : نفسه ، ص 373

[70] : نفسه ، ص 338

[71] : عبد اللطيف الحناشي : " الشيخ عبد العزيز الثعالبي و القضية الفلسطينية 1923 – 1944 " ، جامعة منوبة ، تونس ص4

[72] : نفسه ، ص 4

[73] : محمّد السّعيد عقيّب : المرجع السّابق ، ص 382

[74] : نفسه ، ص 382

[75] : عبد اللطيف الحناشي : المرجع السابق ، ص 5

[76] : يوسف مناصريّة : " **الحزب الحرّ الدستوري التونسي 1919 – 1934** " ، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجسير في التاريخ الحديث والمعاصر ، إشراف أ.د. أبو القاسم سعد الله ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، 1985-1986 ، ص 262

[77] : عبد اللطيف الحناشي : المرجع السابق ، ص 7 – 8

[78] : نفسه ، ص 13

[79] : يوسف مناصريّة : **الحزب الحر الدستوري التونسي** ، المرجع السابق ، ص 263

[80] : عبد اللطيف الحنّاشي : المرجع السّابق ، ص 13 – 14

[81] : نفسه ، ص ص 15 – 17